فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس
والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم(الأنعام:٩٦).

بقلم: د. زغلول النجار

هذه الآية القرآنية الكريمة جاءت في مطلع الثلث الثاني من سورة الأنعام، وهي سورة مكية، ومن طوال السور في القرآن الكريم إذ يبلغ عدد اياتها١٦٥ آية بعد آية البسملة؛ وقد سميت بهذا الاسم لورود ذكر الأنعام فيها، ويدور المحور الرئيسي للسورة حول قضية العقيدة، وفي مقدمتها الإيمان بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبخاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا؛ والإيمان بحقيقة الوحي، وبوحدة رسالة السماء؛ وبحتمية البعث والحساب وبالخلود في الحياة الآخرة إما في الجنة أبدا أو في النار أبدا...!!
والإيمان بالله(تعالى) يقتضي توحيده توحيدا مطلقا فوق كل خلقه، وتنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله من مثل الادعاء الكاذب له بالشريك أو الصاحبة أو الولد(تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا)، والإقرار له(سبحانه) بطلاقة القدرة التي لا تحدها حدود، وعظيم السلطان الذي لا ينازعه فيه منازع، وبالألوهية والربوبية فوق كل خلقه، وبأنه رب هذا الكون ومليكه والمتصرف فيه وحده.

و من الآيات الكونية التي استشهدت بها سورة الأنعام الآية التي تشير إلى تأكيد أن الشمس والقمر يجريان بنظام محكم دقيق يمكن من حساب الزمن، والتأريخ للأحداث ولأداء العبادات في أوقاتها.
فجريان كل من الشمس والقمر بنظام محسوب بدقة بالغة مما يعين على حساب الزمن، والتأريخ للأحداث، وأداء الحقوق والواجبات والعبادات في أوقاتها المحسوبة، وقبل الدخول إلى ذلك لابد من الاستعراض السريع لأقوال عدد من كبار المفسرين السابقين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين في تفسير قوله(تعالى):

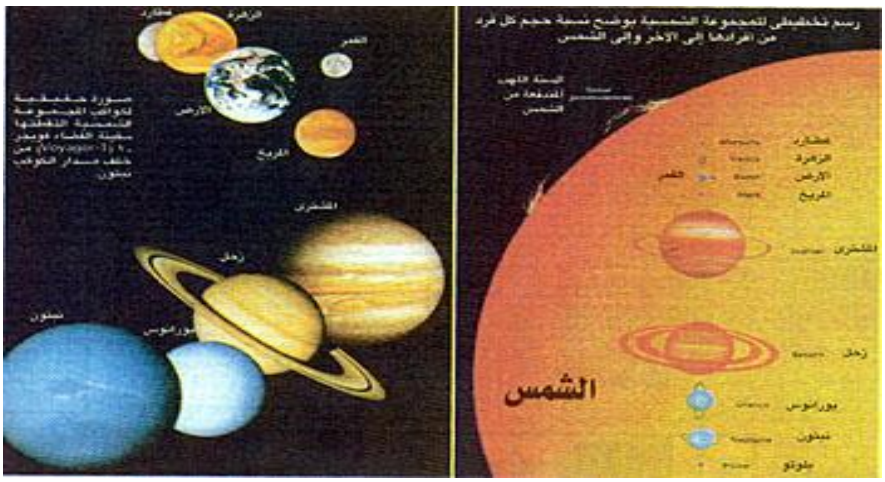

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم(الأنعام:٩٦).
* ذكر ابن كثير يرحمه الله ما نصه:(فالق الإصباح وجعل الليل سكنا) أي خالق الضياء(النور) والظلام كما قال في أول السورة(وجعل الظلمات والنور) أي فهو سبحانه يغلق ظلام الليل عن غرة الصباح فيضئ الوجود، ويستنير الأفق، ويضمحل الظلام، ويذهب الليل بسواده وظلام رواقه، ويجئ النهار بضيائه(بنوره) وإشراقه،..... وقوله(والشمس والقمر حسبانا) أي يجريان بحساب مقنن مقدر لا يتغير ولا يضطرب، بل لكل منهما منازل يسلكها في الصيف والشتاء، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولا وقصرا كما قال:(وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل) الآية، وكما قال:(لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون)، وقال:(والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره)، وقوله:(ذلك تقدير العزيز العليم) أي الجميع جار بتقدير العزيز الذي لا يمانع، ولا يخالف، العليم بكل شئ فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وكثيرا ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر يختم الكلام بالعزة والعلم....

* وجاء في تفسير الجلالين(رحم الله كاتبيه) ما نصه:(فالق الإصباح) مصدر بمعنى الصبح أي شاق عمود الصبح، وهو: أول ما يبدو من نور النهار عن ظلمة الليل...(سكنا) يسكن فيه الخلق من التعب،(الشمس والقمر) بالنصب عطفا علي محل الليل..(حسبانا) حسابا للأوقات، والباء محذوفة، وهو حال من مقدر أي: يجريان بحسبان...(ذلك) المذكور(تقدير العزيز) في ملكه(العليم) بخلقه.
وذكر صاحب الظلال(رحمه الله رحمة واسعة) ما نصه: إن فالق الحب والنوى هو فالق الإصباح أيضا، وهو الذي جعل الليل للسكون، وجعل الشمس والقمر محسوبة حركاتهما، مقدرة دوراتهما.. مقدرا ذلك كله بقدرته التي تهيمن على كل شئ، وبعلمه الذي يحيط بكل شئ.
وانغلاق الإصباح من الظلام حركة تشبه في شكلها انغلاق الحبة والنواة، وانبثاق النور في تلك الحركة، كانبثاق البراعم في هذه الحركة، وبينهما من مشابه الحركة والحيوية والبهاء والجمال سمات مشتركة، ملحوظة في التعبير عن الحقائق المشتركة في طبيعتهما وحقيقتهما كذلك... وبين انغلاق الحب والنوى وانغلاق الإصباح، وسكون الليل صلة أخرى.... إن الإصباح والإمساء، والحركة والسكون، في هذا الكون " أو في هذه الأرض " ذات علاقة مباشرة بالنبات والحياة.
إن كون الأرض تدور دورتها هذه حول نفسها أمام الشمس، وكون القمر بهذا الحجم، وبهذا البعد من الأرض، وكون الشمس كذلك بهذا الحجم، وهذا البعد، وهذه الدرجة من الحرارة... هي تقديرات من(العزيز) ذي السلطان القادر(العليم) ذي العلم الشامل... ولولا هذه التقديرات ما انبثقت الحياة في الأرض على هذا النحو، ولما انبثق النبت والشجر، من الحب والنوى... إنه كون مقدر بحساب دقيق. ومقدر فيه حساب الحياة، ودرجة هذه الحياة، ونوع هذه الحياة... كون لا مجال للمصادفة العابرة فيه....

وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن(رحم الله كاتبه برحمته الواسعة) ما نصه:(فالق الإصباح) الإصباح: مصدر سمي به الصبح، أي شاق ظلمة الصبح " وهو الغبش في آخر الليل الذي يلي الفجر المستطيل الكاذب " عن بياض النهار؛ فيضئ الوجود ويضمحل الظلام، ويذهب الليل بسواده ويجئ النهار بضيائه(والأصح هو بنوره).
(وجعل الليل سكنا) يسكن إليه من يتعب بالنهار ويستأنس به لاستراحه فيه.(والشمس والقمر حسبانا) أي يجريان في الفلك بحساب مقدر معلوم، لا يتغير ولا يضطرب حتى ينتهيا إلى أقصى منازليهما، بحيث تتم الشمس دورتها في سنة، ويتم القمر دورته في شهر، وبذلك تنتظم المصالح المتعلقة بالفصول الأربعة وغيرها.
والحسبان: مصدر حسبت المال حسبا " من باب فتل " أحصيته عددا.
وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم(جزاهم الله خيرا) ما نصه: وهو الذي يشق غبش الصبح بضوء (والصحيح هو بنور) النهار، ليسعى الأحياء إلي تحصيل أسباب حياتهم، وجعل الليل ذا راحة للجسم والنفس، وجعل سير الشمس والقمر بنظام دقيق يعرف به الناس مواقيت عباداتهم، ومعاملاتهم. ذلك النظام المحكم، تدبير القادر المسيطر على الكون المحيط بكل شئ علما.

وجاء في صفوة التفاسير(جزى الله كاتبه خيرا) ما نصه: (فالق الإصباح) أي شاق الضياء(والصحيح هو النور) عن الظلام وكاشفه، قال الطبري: شق عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده(وجعل الليل سكنا) أي يسكن الناس فيه عن الحركات ويستريحون(والشمس والقمر حسبانا) أي بحساب دقيق يتعلق به مصالح العباد، ويعرف بهما حساب الأزمان والليل والنهار(ذلك تقدير العزيز العليم) أي ذلك التسيير بالحساب المعلوم تقدير الغالب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القاهر الذي لا يستعصي عليه شئ، العليم بمصالح خلقه وتدبيرهم.

شرح الآية الكريمة في ضوء المعارف المكتسبة

تشير هذه الآية الكريمة إلى حقيقة كونية مؤداها أن الله جلت قدرته قد قدر للأرض أن تدور حول محورها أمام الشمس(كما قدر لكل جرم من أجرام السماء أن يدور حول محوره، وأن يسبح في فلكه)، وبذلك فإنه(تعالى) يفصل بالتدريج بين الأرض عن ليل السماء بطبقة نور النهار الرقيقة(التي لا يتعدى سمكها مائتي كليومتر بالنسبة إلى المسافة بين الأرض والشمس المقدرة بنحو ١٥٠ مليون كيلومتر)، وبذلك فهو(سبحانه) يغلق هاتين الظلمتين المتداخلتين بالتدريج فيحل النهار محل ظلمة الأرض، ويبقى ظلمة السماء، ولذلك وصف ذاته العلية بأنه فالق الإصباح أي الصبح ولا يقوى على ذلك أحد غيره.
ثم يضيف وصفا آخر لتلك الذات العلية هي.... وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا...، ويصف تقدير ذلك بأنه:.... تقدير العزيز العليم.

وجاء التعبير فالق الإصباح وجعل الليل سكنا إشارة إلى تبادل كل من النهار والليل، وإلى جعل النهار لعمارة الأرض، وإقامة عدل الله فيها، وللجري وراء المعايش، وللكدح من أجل كسب الرزق الحلال، وجعل الليل للسكن والاستجمام، والراحة والاسترخاء، والتأمل والعبادة بعد كدح النهار؛ وتبادل كل من الليل والنهار لا يتم إلا بدوران الأرض حول محورها أمام الشمس.
وهذه الدورة الأرضية التي تعرف باسم الدورة المحورية، أو المغزلية، أو الدورانية تتم بسرعة تقدر بنحو الثلاثين كيلومترا في الدقيقة(٤٦٥ مترا في الثانية*٦٠=٢٧,٩ كيلومتر في الدقيقة*٦٠=١٦٧٤ كيلومترا في الساعة) لتتم دورة كاملة في يوم مقداره ٢٤ ساعة(٢٣ ساعة،٥٦ دقيقة،٤ ثوان في المتوسط)، يتقاسمه ليل ونهار بتفاوت قليل في طول كل منهما، وذلك بسبب ميل محور دوران الأرض على مستوى مدار الأرض حول الشمس، مما ينتج عنه تبادل فصول السنة: الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء.

ويوم الأرض(الناتج عن دورانها دورة كاملة حول محورها) يختلف طوله على مدار السنة بسبب تغيير سرعة سبح الأرض في فلكها حول الشمس(سرعة الحركة المدارسة للأرض) تبعا لبعدها عن الشمس، وبسبب آثار ظاهرتي المد والجزر، والدوران الفعلي للغلاف الغازي المحيط بالأرض، وبسبب بعض التغيرات في لب الأرض.
وقد جددت الثانية كوحدة للزمن على أساس أنها الفترة الزمنية المكافئة لـ١:٨٦,٤٠٠ من متوسط طول اليوم الشمسي على مدار السنة(٢٤ ساعة*٦٠ دقيقة*٦٠ ثانية=٨٦,٤٠ ثانية).

ولتفادي ما ثبت من تناقص سرعة دوران الأرض حول محورها، وبالتالي زيادة متوسط طول اليوم الشمسي بنحو ٠,٠٠١ ـ من الثانية في القرن الواحد، فقد تم الاتفاق على تعيين طول الثانية ذريا بأنها الفترة التي يتردد منها قفز الإليكترون من مدار إلى آخر حول نواة ذرة نظير عنصر(السيزيوم ـ١٣٣) نحو تسعة بلايين مرة (٩,١٩٢,٦٣١,٧٧٠ مرة)، كما يمكن تقسيم الثانية إلى وحدات أقل.
ومع دوران الأرض حول محورها أمام الشمس من الغرب إلى الشرق يبدو لنا هذا النجم(الشمس) صاعدا من جهة الشرق، وغائبا في جهة الغرب في حركة ظاهرية تحدد لنا كلا من ليل ونهار، ويوم الأرض؛ وباستخدام كل من المزولة، أو البندول المعلق من سقف مرتفع، أو الساعات(باختلاف أنواعها ودرجة دقتها حتى الساعة الذرية) يمكن تقسيم كل من الليل والنهار إلى الساعات والدقائق والثواني، وفي بعض الحالات إلى أجزاء من الثانية.

والدورة اليومية الناشئة عن دوران الأرض حول محورها دورة كاملة في كل يوم تجعل جميع ما نراه في صفحة السماء الدنيا، وكأنه يدور من حولنا، وليست الشمس وحدها؛ فبالمثل يبدو القمر وكأنه يطلع على الأرض من جهة الشرق، ويغيب عنها في جهة الغرب، وهذه دورة ظاهرية، وللقمر دورة حقيقية حول محوره المائل على مستوى مداره أمام الأرض بسرعة متوسطة تقدر بنحو ٣٦٧٥ كيلومترا في الساعة، أي نحو واحد في الثانية، وهي نفس سرعة سبحه حول الأرض في مدار به دائري يقدر طوله بنحو ٢,٤ مليون كيلومتر لتتم هذه الدورة في أكثر قليلا من السبعة والعشرين يوما(٢٧,٣٢١٧ يوم)، ولكن نظرا لسبح الأرض حول الشمس في نفس الوقت مما يؤدي إلى تباعد نقطة البداية في كل دورة قمرية عن سابقتها فان القمر يتم دورته الشهرية فعلا في نحو ٢٩,٥ يوم(٢٩,٥٣٠٩ يوم) هي مدة الشهر القمري؛ ويقدر متوسط بعد القمر عن الأرض بنحو ٣٨٤ ألف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كيلومتر، وبذلك يكون يوم القمر هو الشهر القمري للأرض، وهو يوم يقدر طول كل من ليله ونهاره بنحو ١٤,٥ يوم أرضي.
ويشترك في تحديد الشهر القمري كل من الشمس، والقمر، والأرض بأوضاعها المحددة بالنسبة لبعضها البعض، وكل من حركاتها الحقيقية، والظاهرية؛ فالقمر في سبحه في مداره حول الأرض، وهو يواجهها بوجه واحد يتم دورته في شهر قمري يتراوح طوله بين ٢٩،٣٠ يوما(بمتوسط٢٩,٥٣ يوم فيبدأ بالخروج من دور المحاق (طور الاقتران)، وبميلاد الهلال الجديد، ثم بزيادة مساحة الجزء المنير من سطح القمر بالتدريج يتحرك إلى التربيع الأول، ثم الأحدب الأول، ثم البدر الكامل(طور الاستقبال)، وبعد ذلك تبدأ مساحة الجزء المنير من سطح القمر في التناقص بالتدريج إلى الأحدب الثاني، ثم التربيع الثاني، ثم الهلال الأخير حتى يدخل في طور المحاق، فيختفي نور القمر بالكامل لمدة يوم أو يومين حسب طول الشهر القمري، ويعاود الظهور في أول الشهر القمري التالي بميلاد هلال جديد، وهكذا إلى أن يرث الله(تعالى) الكون بما فيه، ومن فيه.

والأرض تسبح حول الشمس في فلك محدد لها(ومعها قمرها) لتتم دورة كاملة في سنة شمسية يقدر طولها في زماننا الراهن بنحو(٣٦٥,٢٥ يوم) موزعة على إثنتي عشر شهرا بعد بروج السماء.
ونظرا لميل محور دوران الأرض فإن فصول السنة تتبادل: الربيع، والصيف والخريف، والشتاء، وذلك بتقدير العزيز الحكيم.

ولقد شاءت إرادة الله الخالق(سبحانه وتعالى) أن يتحدد يوم الأرض(بليله ونهاره) عن طريق دوران الأرض حول محورها أمام الشمس، وأن يتحدد شهر الأرض القمري بواسطة دورة القمر الشهرية حول الأرض، ويتحدد شهرها الشمسي عن طريق بروج السماء، وأن يقسم شهرها القمري إلى أسابيع، وأيام بواسطة منازل القمر، وأطواره المتتالية في كل شهر.
والسنة القمرية هي الفترة الزمنية التي يتم فيها القمر اثنتي عشرة دورة كاملة حول الأرض، ويستغرق ذلك (٣٥٤,٣٧ يوم)، وكسر اليوم يجمع ليكون يوما في كل ثلاث سنوات تقريبا، ومن هنا اعتبرت السنة القمرية البسيطة٣٥٤ يوما، والكبيسة٣٥٥ يوما؛ بينما تستغرق السنة الشمسية٣٦٥,٢٥ يوم.

ومن الناحية الشرعية فإن الشهر القمري يبدأ برؤية الهلال الجديد بعد غروب شمس اليوم التاسع والعشرين أو الثلاثين من الشهر القمري السابق، وينتهي برؤية الهلال الجديد الذي يليه بعد غروب شمس التاسع والعشرين أو الثلاثين منه؛ وعلى ذلك فإن الفترة الزمنية للشهر القمري تكون عددا صحيحا من الأيام، إما تسعة وعشرين يوما، أو ثلاثين يوما.
ومن المعلوم أن الطول الفعلي للشهر القمري يتراوح بين(٢٩ يوما،٥ ساعات)، و(٢٩ يوما،١٩ ساعة أو أكثر قليلا)، وعلى ذلك فإن مدته الوسيطة تقدر بنحو(٢٩ يوما،١٢ ساعة،٤٤ دقيقة)، وانطلاقا من ذلك فإن الأشهر الكاملة قد تتوالى مرة أو مرتين، كما قد تتوالى الأشهر الناقصة مرة أو مرتين، وسطح الأرض منقسم إلى قسمين يفصل بينهما خط اتحاد المطالع، وجميع الأماكن التي تقع إلى الغرب من هذا الخط إذا رأت الهلال بدأ عندها الشهر القمري الجديد من اليوم التالي للرؤية، بينما جميع الأماكن الواقعة إلى الشرق من خط اتحاد المطالع فإنها لا ترى الهلال إلا في اليوم التالي.

واليوم يبدأ في التقويم القمري من غروب الشمس إلى غروبها التالي، وبذلك يكون الليل سابقا للنهار؛ وفي التقويم الشمسي يبدأ اليوم من منتصف الليل إلى منتصفه التالي.
وعلى ذلك فقد أصبحت حركات كل من الأرض والقمر والشمس معلومة لنا بدقة كبيرة لدرجة أن الساعات الزمنية تضبط اليوم على حركاتها، وصدق الله العظيم الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق: فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم(الأنعام:٩٦).

وصدق ربنا(العزيز الحكيم) الذي أنزل كذلك قوله الحق: والشمس والقمر بحسبان(الرحمن:٥).
أي بحساب محكم دقيق يعين الإنسان على إدراك الزمن وحسابه والتأريخ للأحداث، وأداء العبادات، والحقوق، ولولا ذلك لتعذرت الحياة على الأرض، وهي قضايا لم يدركها الإنسان إلا في أزمنة متأخرة بقرون طويلة بعد تنزل القرآن الكريم، مما يقطع بأنه كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة، والرسالة للرسول الخاتم الذي تلقاه بحق، وأبلغه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بأمانة، وصدق، وجاهد في سبيله حتى أتاه اليقين، فصل الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com